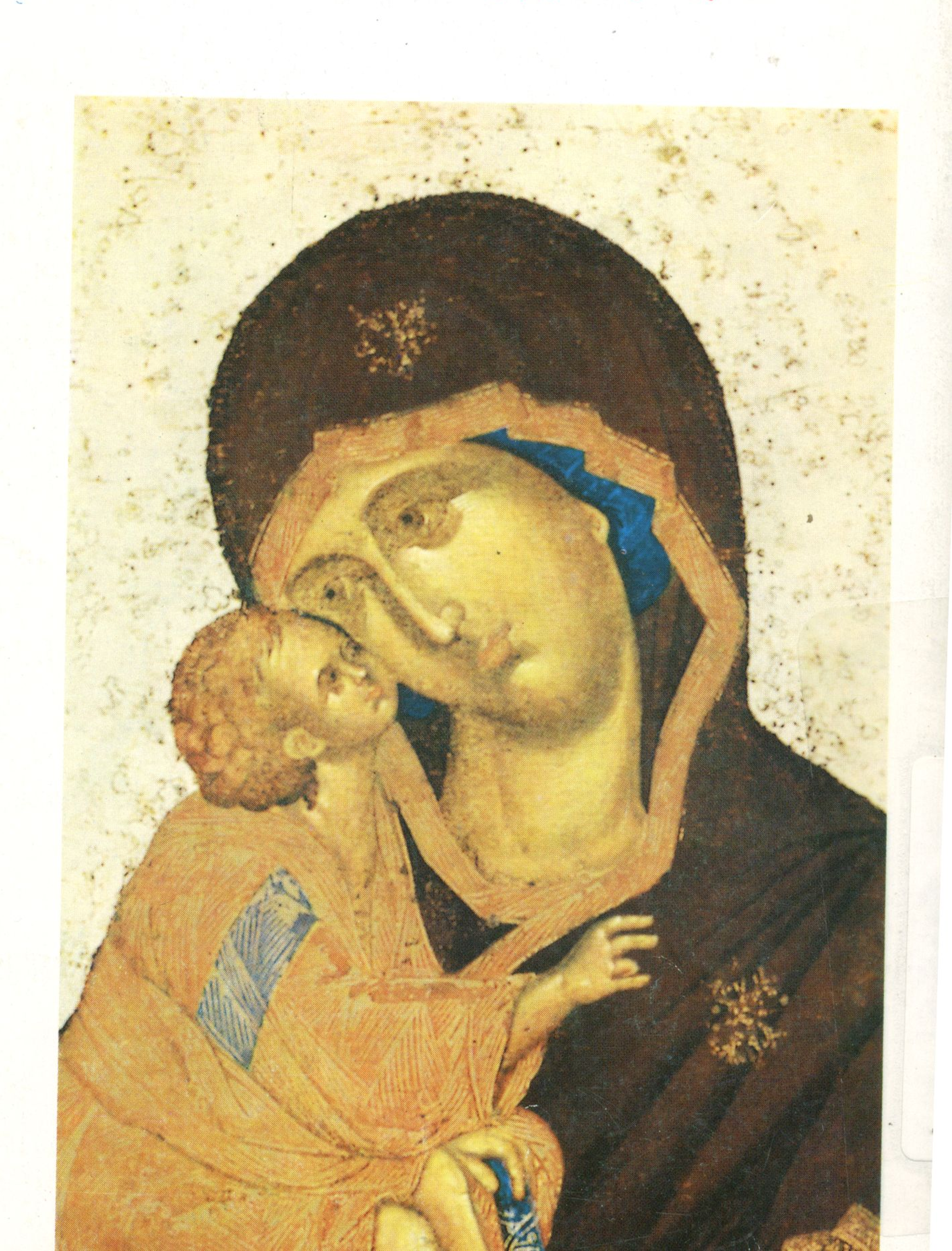
المحبة

في المفهوم المسيحي

بحسب تعليم آباء الكنيسة



المحــبة

في المفهوم المسيحي

بحسب تعليم آباء الكنيسة

دار مجلة مرقس

كتاب: المحبة في المفهوم المسيحي

ترجمة وإعداد: رهبان دير القديس أنبا مقار.

مقالات مترجمة عن كتاب:

SOURCES: Les Mystiques Chrétiens des Origines

(منابع الروحانية المسيحية في أصولها الأولى). للفيلسوف الفرنسي المعاصر

والعالم الآبائي أوليفييه كليمانت Olivier Clément

الناشر: دار مجلة مرقس.

الطبعة الأولى: ١٩٩٤

مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون. ص.ب ٢٧٨٠ القاهرة

٥٠ (أ) شارع شبرا ص.ب. ٣١ شبرا القاهرة.

مقال سبق نشره في مجلة مرقس أعداد من شهر يناير إلى يونيه ١٩٨٩

المحتويات

- ١ -

السمات الأساسية للمحبة

□✱■✱□

+ التقدم في الطريق الروحي ليس له في الواقع العملي إثبات آخر باتٌ وتعبير أفضل من أنه هو نمو قدراتنا، دونما توقف عند حدٍّ، على أن نحب حباً باذلاً لا يتوقع أي تكريم، حباً حاراً نزيهاً لا يتطلب أن يُرَدَّ له العوض، حباً يتسم بتعاطف يجعلنا نخرج عن أنفسنا ونندمج مع الآخر ونشاركه أحاسيسه. إنه القدرة على اكتشاف أن للآخر عمقاً داخلياً سرياً كما لي، ولكنه متمايز لأن الله أراده كذلك.

+ في العالم الساقط تمزقت وحدة البشر، والكل يتصارع ليغالب الفناء. وأنا كإنسان أحاول أن أتخلص من القلق الذي يعصرني بإلقائه على الآخر الذي يصير هو بدوره كبش الفداء لإنحصاري المأسوي الذي يجعلني أنظر للآخر وكأنه عدوي. ولكن في المسيح قد تحوَّل جحيمي الداخلي إلى كنيسة فيها الله والقريب معاً، ولم يَعُدْ لي بعد من عدو، ولا يكون انفصال بين ذاتي والآخرين. فحقيقة العمق الروحي تتبين بدقة في محبة الأعداء بحسب الوصية الإنجيلية التي تتعارض مع المنطق البشري، والتي لا تتخذ قوة معناها إلاَّ بصليب المسيح وقيامته اللذيْن عندما يسريان فينا يمدانا بقوة تمكّننا من تنفيذ

هـذه الوصيـة.

[رأيـت يومـاً مـا ثلاثـة رهبـان أُهينــوا معـاً، فـالأول اغتـمَّ بشـدة وتنغَّص، ولكنه سكت. والثـاني تقبَّـل الإهانـة لنفسـه بفـرح ولكـن حَزِنَ علـى مَـن أهانـه. أمـا الثـالث فلـم يفكـر إلا في خسـارة قريبـه الـذي أسـاء إليـه ففـاضت عينـاه بـالدموع مـن فـرط شـفقته عليـــه. فـالأول كـــان الـذي يحكــم تصرفــه المخافـة، والثـاني الرجـاء في الثـواب، والثـالث المحبـة.](١)

سُلَّم السماء

للقديس يوحنا كليماكوس (الدرجي)

+ الأعجوبـة الحقيقيـة بالغـة الصعوبـة هـي، إذاً، تكمـن في تحقيـق مثـال المحبـة العمليـة بـالمفهوم الروحـي الإنجيلـي لهـذه الكلمـة: «الأغـابي» أي محبة الآخر مـن خـلال محبتنـا لله.

+ الدخـول في علاقـة صميميـة مـع الله هـو في الواقـع: الانقيـاد الواعـي لحركـة محبتـه الإلهيـة الفائقـة الـتي تنسـكب فينـا بـالروح القـدس مـن خـلال إيماننا بالمسيح، والـتي توحـي إلينـا أن الآخـر – وهـو كـل إنسـان أيـاً كـان – هو «قريب» لنـا قرابـة صميميـة تفـوق الأنسـاب الجسـدية بكثـير.

+ العلاقـة بهـذا «القريـب» هـي التلاقـي مـع المسيح الـذي جعـل ذاتـه في كـل إنسـان يتـألم: المنبـوذ، والمسـجون، والشـريد – كمـا يُذكّرنـا بذلـك مشـهد الدينونـة الأخيرة في الإنجيـل (مـت٢٥:٣٥-٤٠): «كنـتُ جوعانـاً فـأطعمتموني؛ كنـتُ عطشـاناً... كنـتُ عريانـاً... كنـتُ

(١) JEAN CLIMAQUE: *L'Echelle Sainte* 8e degré 29

مسجوناً... الحقَّ أقول لكم: كل ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم.»

+ المحبة «الأغابي» تعلن لنا أن كل إنسان، وعلى وجه أخص كل إنسان يتألم، هو سر المسيح، هو «مسيح آخر»، كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم. فالإنسان جُبِل ليكون على علاقة صميمية بالله الواحد المثلث الأقانيم.

قول للقديس باسيليوس الكبير:

[بعد أن أعطانا الرب هذه البذار الحيَّة وألقاها في قلوبنا، يأتي ليطلب الثمار فيقول: «وصية جديدة أعطيكم: وهي أن تحبوا بعضكم بعضاً» (يو١٣: ٣٤). فالرب إذ يريد أن يستحث نفوسنا على مراعاة هذه الوصية، لم يطلب من تلاميذه برهاناً على أمانتهم له وإيمانهم به: لا اجتراح عجائب، ولا إجراء معجزات خارقة - مع أنه سبق فأعطاهم بالروح القدس القدرة على عمل ذلك. ولكن ماذا يقول لهم؟ «سيعرف الجميع أنكم تلاميذي بالمحبة التي ستكون لكم نحو بعضكم البعض.» (يو ١٣: ٣٥)

وهكذا يوحِّد الرب بين هاتين الوصيتين (محبة الله ومحبة القريب) بأن يجعل كل ما يُحْسَن به للآخرين أياً كانوا (ولا سيما المحتاجين) يعود عليه هو نفسه. فيقول: «كنت جوعاناً فأطعمتموني...» ثم يضيف: «كل ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت٢٥: ٣٥-٤٠). وهكذا بمراعاتنا للوصية الأولى يمكننا أن نراعي الثانية، وبتطبيقنا عملياً

للثانية نعود للأولى: فمحبتنا للرب، هي بالتالي محبة للقريب، فالرب يقول: «الذي يحبني يحفظ وصاياي» و«وصيتي هي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم.» (يو١٤:١٥؛ ١٣:٣٤)[٢]

(عن قوانين القديس باسيليوس)

+ فكرة الأشعة المنبعثة من وسط دائرة: فالأشعة تبدو متفرقة كلّما ابتعدت عن المركز، وتتجمع وتتقارب بقدر اقترابها من المركز الذي هو الله. في هذا التشبيه تمثيل مبدع لشرح علاقتنا بالقريب، فانكشاف حقيقة الآخر كذاتٍ أو نفسٍ حية لا يمكن أن يُستعلن لنا إلاّ من خلال علاقتنا الصميمية با لله.

قول للقديس دوروثيوس – من غزة:

[هذه هي طبيعة المحبة: بقدر ابتعادنا عن المركز (في مَثَل الدائرة) فهذا يعني أننا لا نحب الله، وبنفس القدر نتباعد عن القريب. ولكن إذا كنا نحب الله بالحق فإننا نقترب إليه بالمحبة. وبالتالي نجد أنفسنا متآلفين في حبٍّ حقيقي للقريب.][٣]

***

+ نحن جميعاً «أعضاء» جسد المسيح السري، كما يقول القديس بولس: «أعضاء بعضنا لبعض». وحدة بشرية متشاركة في الجوهر الواحد، وكأنها في الواقع إنسان واحد. وفي هذا «الجسد غير المحدود» تسري المحبة كدمٍ إلهي – بشري.

---

(٢) BASILE DE CÉSARÉS: *Grandes Régles* 3,1 et 2 (PG 30--340)

(٣) DOROTHÉE DE GAZA: *Istructions* (SC n° 92 p. 286)

من مجموعة أقوال الآباء:

[قال شيخ راهب: قضيتُ عشرين عاماً أجاهد لكي أنظر إلى جميع الناس وكأنهم إنسانٌ واحدٌ.](٤)

* * *

+ هذه الوحدة المنجمعة والمتكاملة في المسيح لا تتحقق إلاّ بالروح القدس الذي يُومئ إليه التقليد منذ عصر الرسولَيْن بولس ويوحنا بأنه روح «الشركة»، وروح الشركة هذا هو الذي يكشف للبشرية عن سر وحدانية الثالوث الأقدس ويدعو البشرية إلى المشاركة فيه.

قول للقديس غريغوريوس النيصي:

[عندما تستبعد المحبةُ الكاملة المخافة أو عندما تتحول المخافة إلى محبة، عندئذ كل من سيشملهم الخلاص سيكونون في وحدة متوافقة، ينمون معاً بنفس الكمال الإلهي الواحد. حيث سيحس الجميع أن كل واحد منهم هو في الآخر، وأنهم كلٌّ واحد كائن في الروح الإلهي الواحد... وإذ تربطهم وحدة الروح القدس وتحتضنهم كأنها برباط السلام، سيكون الجميع جسداً واحداً وروحاً واحداً... ولكن الأفضل هنا أن نقتبس كلام الإنجيل حرفياً: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ٢١:١٧). واستنباطاً من كلام الرب هنا يمكننا أن نقول: إن رباط الوحدة هو المجد، وهذا المجد هو الروح القدس، وكل مَنْ

---

(٤) *Apophtegmes de ceux qui vieillissent dans l'ascése* (SC n° 1 p. 407)

على دراية بلغة الكتاب المقدس سيفهم معنى ذلك إذا ما انتبه إلى قول الرب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ٢٢:١٧). وفي الواقع، هو منحهم حقيقة هذا المجد عندما نفخ فيهم وقال: «اقبلوا الروح القدس.» (يو ٢٢:٢٠)](٥)

***

+ الإنسان الذي تقدس لا يعود بعد منفصلاً أو منعزلاً عن الآخرين. وبقدر ما يعي جيداً أنه لم يعد منعزلاً في شيء أو مفترقاً من أحد، بهذا المعيار فقط يعرف أنه سائر في طريق القداسة. إنه يحمل في نفسه البشرية جمعاء، كل الناس بآلامهم وقيامتهم، دونما تفرقة بين إنسان وآخر...

+ إنه في المسيح يتحد بـ«آدم في معناه الشامل الكلي - أي الطبيعة البشرية كلها». ذاته لا تعود مهمة بعد. إنه يحتوي كل الناس في صلاته، وفي حبه، دون أن يقضي على أحد أو يدين أحداً إلاّ نفسه وحدها، ويحسب نفسه دائماً آخر الكل.

+ إن قلبه ينجرح للغاية من أجل قباحة العالم، ومن أجل مآسيه التي تتزايد دائماً عبر التاريخ، وإذ يحس أنه منسحق مع المسيح يستشعر أيضاً أنه يقوم معه ومع الكل، فيتحقق أن القيامة هي التي ستسود أخيراً، وأن فرحة القيامة ستغلب كل سلبيات الدنيا.

***

---

(٥) GRÉGOIRE DE NYSSE, *Quinzieme Homélie sur le Cantique des Cantiques* (PG 44,1116)

قول للقديس أنبا مقار:

[الذين استؤهلوا أن يصيروا أبناءً لله، وأن يولدوا من فوق من الروح القدس... قد يحصل لهم أن يبكوا ويحزنوا على سائر الجنس البشري، وتجدهم يتوسلون إلى الله من أجل آدم وكل نسله، ساكبين الدموع الحارة، مضطرمين بحب روحي عميق من أجل كل البشرية. وأحياناً أيضاً تتأجج روحهم بفرح غامر وحب شديد، حتى إنهم يودون - لو كان ذلك ممكناً - أن يأخذوا كل الناس ويضعوهم في قلبهم، دون أن يفرقوا بين أرديائهم وصالحيهم. ثم أحياناً أخرى من فرط اتضاع الروح، ينحنون تكريماً أمام كل إنسان، إذ يعتبرون أنفسهم آخر وأدنى الكل. ثم بعد ذلك يجعلهم الروح القدس من جديد يحيون في فرح يفوق تعبير اللسان.](٦)

(العظة ١٨:٨)

* * *

+ حياتنا وموتنا الروحيان لهما دورٌ كبير في علاقتنا بالآخر. قال أحد القديسين، بناءً على خلاصة تعليم الإنجيل: «في اليوم الأخير سنُحاسب على المحبة (تنفيذاً أو تقصيراً)».

قال الأبّا أنطونيوس:

[الحياة والموت مرتبطان بعلاقتنا بالقريب (أي كل إنسان). فإذا

---

(٦) S. MACAIRE DE L'EGYPTE: *Dix-huitiéme Homélie Spirituelle*, 18,8 (PG 34, 79)

ربحنا أخانا (وعلى الأخص المتخالف معنا) ربحنا الله، أما إذا أعثرنا أخانا فإننا نخطئ إلى المسيح.](٧)

(من أقوال الآباء)

* * *

+ لكي نجد دالة وثيقة عند الله ليس لنا طريق آخر سوى الرحمة، أو ما يسمى في اليونانية: «sympathie» وهي تعني: اتساع القلب وقدرته على مشاركة الآخرين آلامهم وأحاسيسهم.

+ إنسان ليس لديه رحمة، ولا يتوجع لمحن الناس قد وضع حائلاً بينه وبين الله.

قول للأبّ بامو:

[سأل أباً ثيئودور الفرمي أباً بامو: "قل لي كلمة (أنتفع بها روحياً)". فبالجهد قال له: "ثيئودور اذهب وليكن عندك رحمة حانية على الكل، لأن الرحمة تعطينا أن نتكلم بدالة مع الله."](٨)

(من أقوال الآباء)

* * *

+ فرحمة الإنسان الحانية على كل الناس تؤدي حتماً إلى الاتحاد بحنان الله نفسه الذي يديه نحو العالم. القديس غريغوريوس النيسي يتكلم عن حنو الله وإحساسه بآلام البشر وعن مشاركة الله الإنسان

---

(٧) *Apophtegmes*, Antoine, 9 (PG 77)

(٨) *Apophtegmes*, Pamo, 14 (PG 65, 37)

في عواطفه وأحاسيسه. يقول باسكال: «سيظل المسيح يعاني أشد الآلام حتى نهاية العالم».

قول لمار إسحق السرياني:

[إذا أردت أيها الأخ نصيحة فائقة جداً فإليك بهذه النصيحة: ليكن معيار الحنان لديك في ارتفاع دائم إلى الحد الذي فيه تحس في قلبك بحنان الله نفسه نحو العالم.](٩)

❋ ❋ ❋

+ الرحمة الإلهية الواجب بأن نكون عليها: هي أن نحب الناس إلى الحد الذي فيه نكون مستعدين ولو حتى أن نكون محرومين من خلاص أنفسنا نحن إذا كان في ذلك خلاص لهم، كما التمس ذلك بتوسل شديد موسى النبي والقديس بولس الرسول.

+ هي أيضاً: أن نحب الناس محبة باذلة حتى الموت من أجلهم وهذه هي محبة الله نفسه التي منحها لنا في ابنه الوحيد...

قول لمار إسحق السرياني:

[هذه هي العلامة المميزة التي فيها نعرف أولئك الذين بلغوا إلى الكمال المسيحي: إنهم إذا أسلموا أنفسهم للنار عشر مرات في اليوم من أجل محبة الناس، لا يروون غليل حبهم. وهذا ما قاله موسى النبي لله: «إن غفرت خطيتهم. اغفرها لهم. وإلاَّ فامْحُني من كتابك الذي كتبت» (خر٣٢:٣٢). وهذا أيضاً ما قاله المغبوط بولس: «فإني كنت أود لو أكون أنا نفسي

---

(٩) ISAAC LE SYRIEN: *Traités Ascétiques*, 34e traité (Ed, Spanos, p. 151)

محروماً من المسيح لأجل إخوتي...» (رو٩:٣)... بل إن الرب الإله نفسه في محبته للخليقة، أسلم ابنه وحيده للموت على الصليب: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يو٣:١٦)... وهكذا القديسون المتمثلون بالله قد سكبوا على الكل من فيض حبهم.](١٠)

✝

ISAAC LE SYRIEN: *Traités Ascétiques*, 81e traité (p. 307) (١٠)

- ٢ -

متطلبات المحبة

□✱■✱□

+ التأمل الحار في الصليب، أي في محبة الله غير المحدودة نحونا، كفيل بأن يذيب فينا أي حقد أو كراهية أو أي إحساس بالإهانة من جهة الآخرين. فبإزاء رحابة صفح الله اللامتناهي لنا، كيف لا نصفح نحن عن الآخرين أياً كانت إساءاتهم لنا؟ كما يقول الإنجيل، وكيف ننال غفران الله لآثامنا الكثيرة إذا كنّا لا نغفر للناس زلاتهم القليلة نحونا؟ ففي الصلاة الربانية نحن نقول: «اغفر لنا ذنوبنا، كما (أي بالمعيار الذي به) نغفر نحن للمذنبين إلينا».

قول للقديس يوحنا السُّلَّمي:

[التأمل في آلام يسوع يشفي من الحقد، لأن مثال محبته لأعدائه يجعلها تستحي أمام طول أناته.](١)

✱ ✱ ✱

+ ثم هذه الأنشودة التي يكتبها القديس إسحق السرياني متأملاً في سمات المحبة التي يوردها بولس الرسول في رسالته الأولى لأهل

(١) JEAN CLIMAQUE: *L'Echelle Sainte* 9e degré 12 (14) (p. 75)

كورنثوس: «المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد... لا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء... تحتمل كل شيء، تصدق كل شيء (من الله)، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء» (١كو١٣: ٤-٧)، تحمل عمقاً روحياً مسيحياً ملحوظاً، لا يمكن أن يقوم إلاّ على أساس علاقة محبة وطيدة بالرب وحياة داخلية وثيقة معه.

قول للقديس مار إسحق السرياني

[اقْبَلْ أن تكون مُضْطَّهَداً لا مُضطهِداً.
اقْبَلْ أن تكون مصلوباً لا صالباً.
اقْبَلْ أن تكون مُهاناً لا مهيناً.
اقْبَلْ أن تكون مُفْتَرَىً عليك لا مُفْتَرِياً...
افرح مع الفرحين، وابكِ مع الباكين - هذه هي علامة نقاوة القلب.
تألم مع المرضى. احزن مع الخطاة. ابتهج مع التائبين. كن حبيباً للكل، لكن ابقَ في روحك متوحداً (مع الله)...
ابسط رداءك على من وقع في عثرة واستر عليه تماماً. وإن كنت لا تقدر أن تضع ذنبه على نفسك وتتقبل العقاب والعار والفضيحة بدلاً عنه، فلا أقل من أن لا تُعنّفه.](٢)

* * *

المحبة بالمفهوم «الأغابي Agapy»، ليست هي حباً عاطفياً مفاجئاً؛ أو جاذبية جسدية حسّية الواحد نحو الآخر، تزول سريعاً كسحابة

---

(٢) ISAAC LE SYRIEN: *Traités Ascétiques*, 58e traité (p. 238,239)

صيف ولا تلتزم بشيء، بل هي الإحساس القلبي العميق بحب الله نحو الآخر. الله وحده هو الذي يعطينا أن نفهم القريب بحاسة وبصيرة مستنيرتين بالروح القدس. حينئذ يمكننا أن نكتشف فيه كياناً شخصياً متميزاً لا يتبدل فيما وراء الملامح المنظورة والأخطاء والهفوات المرتكبة، بل ويتجاوز حتى ما مُنينا به سابقاً وقتاً ما من خيبة أمل. حقيقة الآخر الجوهرية هي أنه على صورة الله، وليس على صورتنا نحن.

قول للأب ديادوخوس:

[عندما نبدأ في الإحساس بملء محبة الله، نبدأ أيضاً في أن نحب القريب (أي كل إنسان) من خلال الروح القدس الذي نستشعر عمله فينا، هذه هي المحبة التي توصينا بها الكتب المقدسة (وبالأكثر في العهد الجديد). لأن المودة بحسب الجسد تتفكك سريعاً لأقل عذر وأدنى سبب، لأنها ليست مربوطة بوثاق الروح القدس. فالإنسان المضطرم بنار الحب الإلهي، يُقبل بغاية الفرح على ممارسة محبة القريب، بل ويكون على أتم الاستعداد أن يتحمل في سبيله أية خسارة أو إهانة. لأن حرارة حلاوة محبة الله كفيلة في الواقع أن تلاشي تماماً مرارة العداوة.](٣)

* * *

+ وها ناسكان تأصلت فيهما المحبة التي وُهبت لهما من الروح

DIADOQUE DE PHOTICÉ: *Chapitres Gnostiques*, 15 (SC n 5 bis, p. 92) (٣)

القدس، لم يقدرا أن يتخاصما بالرغم من رغبتهما في أن يعرفا ما هو سبب النزاع بين الناس ويجرباه عملياً، لأن «لي» و«لك» ليس لهما معنى لديهما. فالمودة التي كانت بينهما جاوزت كل إحساس بالتملك.

من سِيَر الآباء:

[ناسكان كانا يعيشان في قلاية واحدة، ولم يحدث بينهما البتة نزاع واحد. فقال أحدهما يوماً ما للآخر: "دعنا نتعارك ولو مرة واحدة كما يفعل الآخرون"، فأجابه رفيقه: "لا أعرف كيف أبداً"، فعاد الأول وقال: "سأضع هذا «القالب الطوب» بيننا، ثم سأقول «إنه لي» وأنت بدورك تقول: «لا، إنه ملكي» فهذا هو الذي يقود إلى المنازعات والمخاصمات".

فوضعا «قالب الطوب» فيما بينهما، ثم قال أحدهما: "إنه لي" وقال الآخر: "لا، أنا متأكد أنه يخصني". فعاد الأول وقال: "إنه ليس لك، ولكنه لي"، عندئذ صرخ الآخر بشدة: "حسناً، فإذا كان يخصك خُذْه". وهكذا لم يفلحا في أن يتخاصما.][٤]

* * *

محبة القريب أشد أهمية من الصلاة

قول للقديس يوحنا السُلَّمي:

[قد يعرض لنا ونحن في وقت الصلاة، أن يأتي إلينا إخوة ضيوف من

---

(٤) *Apophtegmes*, Serie des dits anonymes, 221 (SC n° 1, p. 398)

أماكن بعيدة يطرقون أبوابنا. وفي هذه الحالة نحن نُخيَّر ما بين أن نتوقف عن الصلاة، أو أن نُكدِّر الأخ الذي يطرق الباب برفضنا الاستجابة إلى طلبه. ولكن المحبة في الواقع هي أعظم من الصلاة: فالصلاة هي واحدة من بين الفضائل، بينما المحبة هي أمهم جميعاً](٥).

* * *

الخدمة العملية للآخرين مع التجرد من الذات، والمثابرة والحب الحقيقي الذي تقتضيه، يفوق كل أنواع التقشف والنسك.

من سِيَر الآباء:

[قال أخ (راهب) لأحد الآباء الروحيين: "يوجد أخان أحدهما لم يترك قط قلايته حيث يصلي ويصوم ستة أيام مرة واحدة ويُلزِم نفسه بكل أنواع النسك؛ أما الآخر فقد أخذ على عاتقه أن يعتني بالمرضى. فأيٌّ من الاثنين هو الذي يتدبر بالحياة الأكثر قبولاً لدى الله؟"

فأجاب الأب الروحي: "فحتى إذا تعلق الأخ الذي يصوم ستة أيام متواصلة من أنفه، فلن يتساوى مع من يُعْنى بالمرضى"](٦).

+ الحب الحقيقي يتوق ويُحقق، بقدر الإمكان، من أن يستبدل حياته بحياة آخر، عندما يكون هذا الآخر مصاباً بمرض خطير يفتك بالجسد ببطء ويجعل صاحبه منبوذاً بقسوة من المجتمع. ولا يخشى هذا المحب بأن يصاب بكل ما بُلي به صاحبه. ومعروف في التقليد الرهباني سير الآباء الذين قبلوا «المجذوم» وخدموه وشاركوه طعامه.

---

(٥) JEAN CLIMAQUE: *L'Echelle Sainte* 26e degré 43 (52) (p. 131)

(٦) *Apophtegmes,* Serie des dits anonymes, 224 (SC n° 1, p. 399)

قول للأب أغاثون:

[قال أباً أغاثون: "لو أمكنني أن ألتقي بمجذوم فأعطيه جسدي وآخذ جسده، لكنت في غاية من السعادة"، هذا هو، في الواقع (معيار) الحب الحقيقي](٧).

✝

(٧) *Apophtegmes*, Agathon, 26 (PG 65, 115)

- ٣ -

سمو المحبة على شريعة الأخلاق

□✱■✱□

+ بقدر ما يتعمق المسيحي إيمانه بقدر ما يكون مدعواً لأن يسمو عل أخلاقيات الشريعة، أو بكلمة أخرى أن يحيا «شريعة» «المحبة». هذه الأخلاقيات الجديدة تُكرِّم الشخص وتصون سرَّه وتحترم قَدْرَه ونصيبه في الحياة، أياً كان، قبل أن تركز الاهتمام بمقاييس المبادئ الاجتماعية للصلاح والبر. هكذا فعل المسيح أمام المرأة الزانية. إنه يذكِّر أولئك الذين يهمُّون أن يرجموها بدعوى مخالفتها لبنود الشريعة، بأنهم هم أنفسهم بعيدون عن الله، وأن زناهم هم هو زنا روحي: «من كان منكم بلا خطية فليرْمها أولاً بحجر.» (يو٨: ١-١١)

+ لدى الإنسان السائر في الطريق الروحي، لا شيء أهم من تطبيق الوصية الإنجيلية القائلة بوجوب عدم دينونة الآخرين.

+ المبتدئون في المسيرة الروحية آفتهم: الشراهة والإعجاب بالنفس؛ أما الذين قطعوا شوطاً أكثر فيها فالهزيمة الروحية تأتيهم دائماً من جراء الدينونة التي يحملونها على الآخرين: فكل نسكهم قد

يُصاب بالفرِّيسية(١) الذهنية والشكلية، بنفس المعنى الذي يعطيه الإنجيل لهذه الكلمة.

+ النسك ليس إلاَّ بوتقة للاتضاع،
الاتضاع هو الإمكانية المخلصة لممارسة المحبة.
لذا كان قوام الفضيلة عند السائرين في الطريق الروحاني،
هو رفض الازدراء بالآخرين أو احتقارهم أياًّ كانوا.

من أقوال آباء البرية:

[السقطات تنشأ عند المبتدئين (في الحياة الروحية) في أغلب الأحيان من الشراهة. أما المتقدمون فتصيبهم بسبب إعجابهم الشديد بذواتهم...
أما الذين اقتربوا إلى حد الكمال فتأتي عليهم فقط من جراء دينونتهم للقريب.](٢)

القديس يوحنا السُّلَّمي

[قال أباًّ ثيئوذور الفرمي: ليست هناك فضيلة أخري تساوي فضيلة عدم الازدراء بخليقة الله.](٣)

القديس ثيئوذور الفرمي

* * *

(١) الفرِّيسية هي انتهاج نهج الفريسيين الذين وبخهم المسيح ـ له المجد ـ من جراء انتقادهم أخطاء الآخرين، وهم أنفسهم واقعون في ما هو أعظم منها.

(٢) JEAN CLIMAQUE: *L'Echelle Sainte* 25e degré 16 (18) (p. 87)

(٣) *Apophtegmes*, Théodore de Phermé, 13 (PG 65, 189)

+ التجربة الأساسية التي صيغَتْ بأسلوب مذهل في سفر التكوين، كانت في الحوار الذي بدأ بعد السقوط، بين الله والأبوين الأولين: «فقال الرجل: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ... وقالت المرأة: الحيَّة غرَّتني فأكلتُ» (تك٣: ١٢و١٣). وهكذا برَّر الإنسان نفسه، والذنب أُلقي على المرأة، ثم على الحية، بل وأخيراً على الله، بقول آدم: «المرأة التي جعلتها معي»!

+ فتبرير الذات بإلقاء الذنب على الآخرين، هو الانحراف الذي نميل إليه دائماً سواء في حياتنا الخاصة، أو في حياتنا العامة. الكرامة الحقيقية للإنسان أن يأخذ على نفسه هو تبعات خطئه. فالاتضاع الحقيقي هو الحب الحقيقي، بحسب العُرف الروحي، بل وأيضاً أن يضع الذنب على نفسه «في كل شيء وعن كل أحد».

من أقوال آباء البرية:

[قال الأبا يوحنا القصير: قد ألقينا عن أنفسنا بالحِمل الهيِّن، وهو دينونتنا لذواتنا، واخترنا الحِمْل الثقيل وهو: أن نبرر أنفسنا وندين الآخرين.](٤)

القديس يوحنا القصير

* * *

+ القلب ينبغي أن يتنقى لكي يرى الله: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت٥: ٨). مصداقية هذا النقاء، هي النظرة الجليَّة الواضحة والودودة التي تعرف أن تكشف في كل إنسان

---

(٤) *Apophtegmes*, Jean Colobos, 21 (PG 65, 212)

شخصيته أو صورته الأصلية التي أبدعها الله، والتي من أجلها، كما يقول الفيلسوف باسكال: «سكب على الصليب قطرات دمه الكريم»... حينئذ تتلاشى من أمام عينيه كل المعايير والأحكام البشرية لتقييم الطاهر وغير الطاهر، بل الخير والشر أيضاً: فكل إنسان جُبل أساساً ليكون خَيِّراً، لأنه خليقة الله، وصورة الله، ومراد الله، وإن كان قد انحرف بعيداً عن غاية وجوده.

+ إن كبار الخطاة هم مؤهلون أكثر للنعمة، والكنيسة تكرِّم بوجه خاص كلاًّ من اللص التائب على الصليب، والمرأة التائبة. وها هي مريم المصرية التي كانت قد أسلمت جسدها لكل مُنْكَرٍ، تجحد حياتها السابقة فجأة وتستجيب لنداء يدعوها لتكميل توبتها في البرية، ومن ثم تصبح قديسة شهيرة ومثالاً حياً للتوبة على مدى الأجيال.

+ نحن كلنا قد نسيء إلى المسيح يومياً، وذلك عندما نجرح المحبة، عندما ندين أو نسيء إلى الآخرين بدلاً من أن نحبهم. ولكن المسيح مع ذلك لا يزال يحبنا، لأنه قد مات لأجلنا لكي يهب لنا الحياة الأبدية بقيامته.

من أقوال آباء البرية:

[سؤال: وكيف يعرف الإنسان أن قلبه قد بلغ إلى حد النقاوة؟
الجواب: عندما يعتبر أن كل الناس صالحون؛ وعندما لا يبدو في نظره أيُّ إنسان ما غير نقي أو نجساً، وعندئذٍ يكون بالحقيقة

نقي القلـب.][5]

القديس إسحق السرياني

* * *

+ وهكـذا يكـون كـل النــاس متسـاوين في نظـر مـن تنقـى قلبـه، لا تسـاوياً ظاهريـاً مـن حيـث أنهـم بشـر يحملـون نفـس السـمات الطبيعيـة؛ بـل وأيضـاً لأن كـلاً منهـم يحمـل نفـس الصـورة الجوهريـة الخـالدة للإنسان، والتي تتجـه مـع غيرهـا إلى تحقيـق المثـال الإلهـي اللانهـائي.

+ والمسيح إذ قـد رفـض التحريمـات والموانـع في الشـريعة اليهوديـة الـتي تحـذر مـن الاقـتراب مـن شـخص مـا أو الاختـلاط بـه بسـبب مرضـه أو جنسه أو غير ذلك، كـان يلبِّـي دعـوة مـن يدعونـه لولائمهـم مهمـا كـانت سمعتهم سيئة ويشـاركهم موائدهـم، لكـي يعبِّر لهـم عـن محبتـه الشـديدة.

+ في الواقـع لا يمكـن أن يحـب الإنسـان هـؤلاء المحتقريـن والمنبوذيـن إلاَّ إذا انكشـف لـه هـو شـخصياً حـبُّ الله الشـديد لـه الـذي حبـاه بـه دونمـا أي استحقاق «... الله بيَّـن محبتـه لنـا لأنـه ونحـن بعـدُ خطـاة مـات المسيح لأجلنـا.» (رو٥:٨)

+ عندمـا نتـأمل في سِيَر بعـض الشـخصيات الروحيـة الرائـدة في الغرب، نجد عندهـم خبرات إيمانيـة عميقـة تعبِّر عن عمـق إيمـانهم وحبِّهـم لله ولخليقتـه أيـاً كـانت، وكيـف قـدروا، بعـد أن استُعلنت محبـة الله لهـم، أن يحيطـوا بحبهـم أشـد النـاس إجرامـاً والميئـوس منهـم علـى الإطـلاق: هـا تريـزا دي ليزييـه، الـتي تبـدأ حياتهـا الروحيـة، بـأن تصلـي كـأُم مُحبـة،

---

(٥) ISAAC LE SYRIEN: *Traités Ascétiques*, 58e traité (p. 340,341)

وهي بعد فتاة، من أجل مُذْنب قاتل، وتختمها بأن تجلس راضية «على مائدة الخطاة» مجتازة الخبرة المُرعبة التي للإلحاد المعاصر، والذي يسميه المتصوفون المسيحيون: «الليل الحالك الظلمة»؛ أو كاترين دي سيين de sienne التي كانت تفتقد السجين السياسي تولدو Tuldo في معتقله، والتي رافقته مواسية له حتى إلى مقصلة الإعدام، ومن ثمَّ كانت رؤيتها الشخصية العميقة هكذا - كما كتبت هي قائلة: «وفي الحين رأيت الرب يسوع كما يُرى ضياء الشمس الساطع».

+ ولنتأمل أيضاً في قمة الروحانية الشعبية الروسية التي يعبِّر عنها دوستويفسكي في كتاباته عن الإكرام الذي كان يبديه الشعب من نحو المجرمين، وذلك في روايته «سونيا» التي كانت تعمل في خدمة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بسيبيريا.

قول للقديس مار إسحق السرياني:

[عندما تعطي، أعطِ بسخاء، وبوجه بشوش. وأعطِ أكثر مما يُطلب منك. ولا تفرق بين غني وفقير. لا تسعى إلى أن تعرف من هو مستحق ومن هو غير مستحق. ليكن كل الناس متساوين لديك، فقد تقدر بمحبتك أن تجذب حتى هؤلاء المرذولين إلى فعل الصلاح... فالرب كان يرتضي بأن يأكل على مائدة العشارين (الجُباة الظالمين) والزواني. فلم يتحاشَ أبداً مجالسة ذوي السمعة الرديئة والمنبوذين (بحسب الشريعة اليهودية)، حتى يجتذب الكل بحبه الإلهي الشامل... لذا وجب علينا أن نفعل الخير ونقدم التكريم لكل الناس على السواء حتى لو كانوا كافرين أو قتلة، لأن كل إنسان هو أخونا في الطبيعة

حتى ولو نأى بنفسه عن طريق الحق دون أن يدري.][٦]

* * *

+ الإنسان الروحي يستر على ذنوب الآخرين، كما يستر الله على العالم من الدمار، وكما يستر المسيح على عيوبنا بل ويمحوها سراً بدمه.

من سير الآباء القديسين:

[قيل عن أنبا مقار الكبير أنه صار، كما هو مكتوب، إلهاً على الأرض، لأنه كما أن الله يصون العالم، هكذا أباً مقار، كان يستر على العثرات التي كانت تحدث أمام عينيه، كما لو لم يكن يراها، والتي كان يسمعها كأنه لم يكن قد سمعها.][٧]

* * *

+ من يدين نفسه – وهكذا يكتشف الصليب الذي هو «دينونة الدينونة» – كيف يتجاسر على أن يدين الآخرين أو يقاضيهم؟ إنه يضع نفسه جنباً إلى جنب مع المذنب المُدان والمحروم؛ كما أتى المسيح ساعياً في طلب الإنسان حتى إلى الهاوية (نزل إلى الجحيم من قِبَل الصليب).

من سير الآباء القديسين:

[حدث في الأسقيط أن أخاً (راهباً) ارتكب زلّة. فاجتمع الشيوخ (كبار الرهبان)، وطلبوا من أباً موسى أن يلحق بهم.

(٦) ISAAC LE SYRIEN: *Traités Ascétiques*, 23e traité (p. 99)

(٧) *Apophtegmes*, Macaire l'Egyptien, 32 (PG 65, 273)

ولكنه رفض أن يأتي. فأرسل له القس (الذي كان يرأس الاجتماع) رسالة مضمونها: "احضر، لأن جماعة الإخوة هم في انتظارك". فحينئذٍ قام وانطلق في السير إليهم حاملاً على ظهره قفة قديمة مثقوبة، قد ملأها بالرمل الذي أخذ يتساقط وراءه. وعند وصوله قام الشيوخ ليستقبلوه، فسألوه: "ما هذا (الذي تعمله) أيها الأب"؟ فأجاب الشيخ قائلاً: "هذه خطاياي تسيل ورائي، ولا أراها! وأجيء اليوم لمحاكمة آخر عن زلاته!" فلما سمعوا منه هذا الكلام، لم يتفوهوا بكلمة واحدة على الأخ، وصفحوا عنه.](8)

[أخٌ كان قد أخطأ فطرده القس من الكنيسة. حينئذ قام الأب بيساريون وخرج معه قائلاً: "وأنا أيضاً خاطئ".](9)

* * *

+ وهاكم من القصص الطريفة في البرية: قصتان لبعض لصوص غاية في الطرافة. نرى فيهما اللاعنف - كما كان يفهمه غاندي - ويطبَّق بصورة رائعة لا تعبِّر فقط عن التجرد الكامل، ولكن أيضاً عن محبة فعلية خلاقة أمكنها أن تُحدث تغييراً في المذنب، وتوقظ فيه إنسانيته، وتنبهه إلى نصيبه الحقيقي في الحياة.

من سير آباء البرية:

[نسخ الأب أنسطاسي العهد الجديد والعهد القديم كليهما على

(8) *Apophtegmes*, Moïse, 2 (PG 65, 281-283)

(9) *Apophtegmes*, Bassarion, 7 (PG 65, 141)

رقٌ ثمين كلَّفه ثماني عشرة قطعة ذهبية. ويوماً ما أتى أخٌ لزيارته فلمح هذا المخطوط وسرقه. وفي نفس اليوم عندما أراد أباً أنسطاسي أن يقرأ في هذا الكتاب؛ لاحظ أنه اختفى، فأدرك أن الأخ قد أخذه. ولكنه لم يرسل أحداً ليسأله خوفاً من أن يضطره ذلك إلى أن يضيف إلى السرقة الكذب أيضاً. حينئذٍ انطلق الأخ إلى المدينة المجاورة ليبيع الكتاب، وطلب فيه ١٦ قطعة ذهبية. فقال له المشتري: "أودعه لي بعض الوقت لكي أرى إذا كان يستحق هذا الثمن". فأخذه المشتري وذهب به إلى الأباً أنسطاسي وقال له: "يا أبي أتسمح وتطَّلع على هذا الكتاب وتقول لي رأيك: هل يستحق أن أشتريه بست عشرة قطعة ذهبية؟ وهل هو يساوي هذا الثمن فعلاً؟" أجابه الأباً أنسطاسي (الذي عرف كتابه): "نعم، هذا كتاب جيد، ويستأهل هذا الثمن". فرجع المشتري إلى الأخ وقال له: "هاك النقود كما حدَّدتَ، لأني أريتُ الكتاب لأباً أنسطاسي ووجده جيداً، فلم يستكثر الستة عشر درهماً ثمناً له". فسأل الأخ قائلاً: "هل هذا كل ما قاله؟ ألم يُبدِ أي ملاحظات أخرى؟" أجاب المشتري: "لا، ولا كلمة واحدة". فقال الأخ: "على أي حال، قد غيرتُ رأيي في أن أبيع هذا الكتاب". ولوقته انطلق مسرعاً إلى الأباً أنسطاسي وتوسل إليه باكياً أن يستعيد كتابه. ولكن الأباً أنسطاسي رفض أخذه قائلاً: "امضِ يا أخي بسلام وكن هانئ البال، فقد أهديتُك إياه". إلاَّ أن الأخ أجاب قائلاً: "إن لم تسترده يا أبي فلن يكون لي البتة سلام". وأمضى هذا الأخ بقية حياته مع الأباً أنسطاسي في توبة كاملة وحياة

فاضلـة.](١٠)

[يومـاً مـا جـاء بعـضٌ مـن اللصـوص إلى شـيخ (راهـب) وقـالوا لـه: "لقـد أتينـا لكـي نـأخذ كـل مـا يوجـد في قلايتـك". أجـابهم: "احملوا يـا أولادي كـل مـا أردتم". أمـا هـم فـأخذوا كـل مـا لمحـوه في القلايـة مـا عـدا كيسـاً صغـيراً كـان مخفيـاً ثـم رحلـوا. فمـا كـان من الشـيخ إلاّ أن سـعى وراءهـم مناديـاً: "يـا أولادي، تعـالوا خـذوا هـذا الكيـس الـذي نسـيتموه!". أمـا هـم فـإذ ارتبكـوا واعـتراهم الخجل من موقـف الشـيخ، عـادوا وأرجعـوا كـل مـا أخـذوه نـادمين علـى مـا فعلـوه ومردديـن القـول: "هـذا الشـيخ بالحقيقـة هـو رجـل الله!".](١١)

✠

(١٠) *Apophtegmes*, (in Th. Merton. p. 49,50)

(١١) *Apophtegmes*, Serie des dits anonymes, 206 (SC n° 1, p. 392)

- ٤ -

يعيشون في العالم
ولكنهم ليسوا من العالم

□✱■✱□

+ نورد هنا شهادة كنيسة مضطهدة، ولكن يغمرها الفرح. مضطَهَدة ولكنها ذات رجاء واثق في من تؤمن به، إنها تستعيد اليوم من جديد سماتها هذه في عديدٍ من البلاد...

+ لا عدائية، ولا انتقادية للباطل، في موقف هؤلاء المسيحيين، لا مَيل للذوبان في العالم، والجري وراء أساليبه المستحدثة، ولا رغبة مضادة في الأخذ بالانعزال والتميُّز عن الآخرين بأي علامات خارجية. المسيحيون يخضعون للقوانين، طالما هي لا تسير ضداً لضميرهم: في هذا الأمر الأخير قد رأينا في حالة الشهداء الأولين أنهم رفضوا عبادة الأوثان، ولكنهم في الوقت نفسه قبلوا - بكل رضى - العقوبة المنصوص عليها في القانون.

+ مطلبهم الأساسي لم يكن قلب القوانين واستبدالها بغيرها، وإنما بأن يتساموا في سلوكهم على مقتضياتها. كانوا يحيون كأسرة واحدة متحابَّة، مثالها الذي يُحتذى هو القدوة الصالحة. وفي مجتمع كان

يحكمه القانون الروماني الذي كان يعطي للملكية الفردية شرعية مطلقة، كانوا يعيشون حياة الشركة المسيحية بتلقائية حُرة لا إلزام فيها. وفي بيئةٍ ساد فيها فساد الأخلاق، وعشق الأجساد، مع قسوة بالغة لا مبالاة فيها نحو الأجنّة والمولودين حديثاً الذين كانوا يُعدَمون بأية وسيلة؛ كان المسيحيون مثالاً في العفة واحترام المحبة الزوجية، وكانوا يرفضون الإجهاض والتخلي عن أطفالهم الصغار. وكانت اجتماعاتهم تتميز بالإتحاد في الإيمان الواحد، تسودها المحبة لله وللقريب، أي لكل إنسان أياً كان!

+ كانوا يَسعون لأن يقابلوا الإساءة بالإحسان، وأن يخدموا الناس جميعاً بلا تفرقة. حتى ولو عارضتهم التقاليد السائدة أو ثارت ضدهم. لقد باركوا على الحياة، وعرفوا أن يجعلوها بركة للآخرين أيضاً، حتى في أوقات أشد الآلام وأطولها، وعندما كان يسود الإرتياب والغم على الكثيرين غيرهم.

+ وها كنيسة القرن الثاني، والتي كان يغمرها فرح القيامة كما تشهد لها الرسومات الجليَّة التي تزين سراديب مقابر الشهداء، بمبادئها الروحية تتمكن بفطنة أن تطوِّر في العلاقات البشرية إلى الأفضل وعلى الوجه الأكمل.

+ كانت الكنيسة الأولى – في آن واحد – تعي نفسها تماماً أنها جماعة ملوك وكهنة وأنبياء «مفروزون» لخلاصهم هم، ولخلاص العالم أيضاً. إن المؤمنين الحقيقيين العائشين في المجتمع والحاضرين في الكون، هم بسبب حضور الله فيهم بمثابة الروح للجسد؛ إذ هم يشهدون بنعمة الحياة الإلهية التي يحملونها في كيانهم والتي تُختبر

وتَثْبت أمام كل الإهانات والإضطهادات وكل نوع من المقاومة كما في حالة الشهداء. فرح الكنيسة في وسط الضيقات يفتح للعالم المحتضر مجالاً متسعاً للغاية لكي يتنسم حياة تفوق حدوده المادية. إن المؤمنين الحقيقيين بصلاتهم وتقواهم وبرِّهم، هم للمجتمع مصدر حماية، وفي نفس الوقت، مصدرٌ للإلهام الخلاق. إن كل الإهانات التي يلاقونها منهم أداة خصب للعالم القفر من الروح.

+ وهكذا يمكن للمسيحيين السالكين بالروح والحق أن يكونوا هم الأبرار الذين كانت تنقصهم مدينة سدوم، بل و«نور العالم»، و«ملح الأرض»، بحسب تعبيرات الإنجيل. كان إكليمندس الإسكندري يعتبر المسيحيين المستنيرين أنهم:

[بذار الله وصورته ومثاله، هم ابنه الحقيقي، والوارث له، وقد أُوفدوا من الآب إلى هنا، إلى هذا العالم في مهمة من أجل القصد الإلهي السامي نحو العالم.
فلأجلهم أُبدعت سائر الكائنات... وبسبب بقائهم هنا على الأرض كزرع مقدس حُفظ كل شيء، أما إذا جُمع (وقت الحصاد)، فالكل سيقف أمام عرش الدينونة.](١)

العلاَّمة إكليمندس الإسكندري

+ الكنيسة هي الأساس السري Mystical الذي يقوم عليه العالم، ففيها تنمو المُثُل العليا التي يرتقي بها العالم، ومنها يمتد التاريخ ويتجه نحو اكتماله، فعندما يأتي أوان الحصاد ويضمحل العالم، ويُجمع

---

(١) *Quel riche peut être sauvé*, 36,3.

الأبرار والأشـرار، يكـون ذلـك إيذانـاً ببـدء تغيُّر هيئـة المسـيحيين ـ هـذا إذا مـا ظلـوا أمنـاء علـى رسـالة القيامـة وتمسـكوا حقـاً بعهـد الإفخارسـتيا. لذلـك فهـم منـذ الآن في المجتمـع كمثـل الغابـة وسـط الأراضـي المنزرعـة، ذخـيرة هائلـة مـن الهـدوء والسـلام والحيـاة الحقيقيـة تسـمح بالبقـاء للكائنـات الصالحـة وباسـتمرارية التـاريخ.

من أحد المخطوطات القديمة جداً ـ لمؤلف مجهول من القرن الثاني:

[المسـيحيون لا يتميـزون عـن غـيرهم مـن النـاس، لا بـالموطن ولا باللغـة ولا بالثيـاب. إنهـم لا يقطنـون مدنـاً خاصـة بهـم، ولا يستخدمون في الكـلام أسـلوباً غـير مـألوف، وطريقـة حيـاتهم ليس فيهـا شـيء غريـب... إنهـم يتوزعـون في المـدن الكبـيرة مـع اليونـانيين والبرابرة، كـلٌّ منهـم بحسـب نصيبـه الـذي يتيسـر لـه، إنهم يتبعون نفـس العوائـد المحليـة الجاريـة مـن جهـة المَلْبَس والقـوت ونمـط الحيـاة... إنهـم يقيمـون كـلٌّ منهـم في وطنـه الخـاص، ولكـن كغرباء نزلاء (علـى هـذه الحيـاة الأرضيـة الفانيـة) إلى حـين.

إنهـم يتممـون كـل واجبـاتهم الوطنيـة علـى الوجـه الأكمـل، ويتحملـون كـل الأعبـاء بصـبر دونمـا شـكوى. كـل أرض غريبـة هـي لهـم بمثابـة وطـن (لأنهـم لا يتعصبـون لأرض أو عنصريـة زائلـة)؛ وكـل وطـن هـو لهـم أرض غُربـةٍ (لأنهـم يطلبـون السـماء وطناً باقياً لهـم).

إنهـم يتزوجون مثـل كـل النـاس، وينجبـون أطفـالاً، ولكنهـم لا يتخلون عنهـم أبـداً (كمـا يفعـل الوثنيـون). إنهـم يتشـاركون جميعـاً في المـائدة الواحـدة، ولكـن ليـس في الفـراش الواحـد.

إنهـم في العـالم، ولكنهـم لا يحيـون بحسب العـالم. إنهـم يقضـون حيـاتهم علـى الأرض؛ ولكنهـم مواطنـو السـماء. إنهـم يطيعـون القوانـين المشـترعة؛ ولكـن طريقـة حيـاتهم تفـوق هـذه القوانين بكثـير.

إنهـم يحبـون كـل النـاس، حتـى ولـو كـان هـؤلاء النـاس يضطهدونهـم، أو يتنكـرون لهـم، أو يذمونهـم.

إنهـم يُقتّلـون، ولكنهـم بهـذا يربحـون الحيـاة الأبديـة. إنهـم فقـراء؛ بَيْـدَ أنهـم يُغنُـون الكثـيرين. إنهـم مُعْوَزون في كـل شـيء، ولكنهـم مكتفـون ويفيـض عنهـم الكثـير في كـل ضروريـات الحيـاة. إنهـم يُحْتقـرون ولكنهـم في هـذا الاحتقـار يجـدون مجدهـم... يُفْتَرى عليهـم غـير أنهـم يتـبررون. يُلْعَنـون فيُبَـارِكون...

وخلاصـة القـول: كمثـل الـروح بالنسـبة للجسـد، كذلـك المسـيحيون في العـالم. فـالروح مُنْبثّـة في كـل أعضـاء الجسـد، كذلـك المسـيحيون منتشـرون في كـل مـدن العـالم. الـروح تسـكن في الجسـد (وهـي ليسـت منـه) كذلـك المسـيحيون يعيشـون في العـالم، ولكـن ليسـوا منـه. الـروح غـير مرئيـة ومسـتقرة في جسـد مرئـي، هكـذا المسـيحيون يُـرَوْن جيـداً في العـالم، ولكـن تقواهـم لله تبقى غير مرئيـة مـن الآخريـن بعيـني الجسـد. الـروح مُغلَق عليهـا في الجسـد، ومـع هـذا فهـي الـتي تُبقـي علـى اسـتمراريته في الحيـاة. والمسـيحيون يحيـون كمقيديـن في سـجن العـالم؛ بيـد أنهـم هـم الذيـن يصونـون العـالم (بصلواتهـم وطلبـاتهم عـن العـالم)...

الـروح تصـير إلى حالـة أفضـل إذا مـا تطهـرت مـن شـهواتها بـالجوع والعطـش؛ كذلـك المسـيحيون إذا مـا اضْطُهـدوا تنمـو

حيـاتهم الروحيـة وتتقـدم يومـاً فيومـاً. المكـان أو الخدمـة أو المنصـب الـذي يختـاره لهـم الله – وضيعـاً كـان أم شـريفاً – لا يسـمحون لأنفسـهم أبـداً أن يـتركوه.](٢)

من الرسالة إلى ديوجنيتس

* * *

من أقوال آباء الرهبنـة:

[سُئل أيضـاً (القديـس إبيفـانيوس): "هـل بـار واحـد يكفـي لإرضـاء الله وصفحه (عن الخطـاة)؟" فأجـاب قـائلاً: "نعـم، لأنـه هـو نفسـه قد قال: «فتشـوا عـن إنسـان واحـد يحيـا بحسـب الـبر، فـأصفح عـن كـل الشـعب»".](٣)

✣

(٢) *Epitre à Diognéte*, 5, 1-100 (SC n° 33, p. 62 et 64)

(٣) *Apophtegmes*, Saint Epiphane, 14 (PG 65, 165)

- ٥ -

المحبة وسر الزواج

□*■*□

+ قال الرب يسوع: «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤ : ٢)، والرسول بولس ينبِّه على أهمية المواهب الروحية وأنها أساساً هي دعوات خاصة يلهمها الروح القدس ويوزعها على الأفراد، كل بحسب استعداده الشخصي، ولكن لأجل بنيان الجسد الواحد، أي الكنيسة. والعجيب أن نرى في القول الآبائي - الذي سنورده فيما بعد - شهادة كبار الرهبان لشرعية وجود النوعيات المختلفة من الحياة المسيحية، في الوقت الذي كانت الرهبنة في أوج مجدها وكانت تُعتَبَر في نظر الكثيرين أنها الطريق الوحيد الذي يُعَبِّر عن الحياة المسيحية في كمالها. هؤلاء الرهبان الأوائل كانوا يعيشون - وهم في اتضاع تام - سَبْقَ تذوق الملكوت في قلب الكنيسة.

+ في هذه الشهادات الآبائية؛ نرى إيليا النبي في العهد القديم يُمَثِّل الحياة التأملية التوحدية؛ بينما نرى أيضاً إبراهيم أبا الآباء الإنسان الغني، الشريف، السخي، المضياف؛ وداود صاحب موهبة الشعر والمناجاة مع الله، واستخدام القوة بتواضع شديد وإيمان راسخ بمعونة الرب الكلي القدرة.

+ ونرى البعض يشعُّون على الآخرين من حولهم بما يحيونه من سلام داخلي في باطنهم. وآخرون يصبحون غير قادرين على العمل بسبب أمراضهم، ولكنهم يتقبلونها بشكر فيصيرون مؤهَّلين لتقبل النور الإلهي. وآخرون يخدمون إخوتهم طواعية وبأمانة تامة في كل المجالات الثقافية والإجتماعية. كل هذه الطرق تتقابل معاً في محبة الله والقريب، والقريب هو كل إنسان أياً كان. لأنه لا يمكن للمرء أن يثابر على خدمة القريب بنزاهة وبصبر كامل إلاّ إذا كان هو إنسان صلاة، حتى يمكنه أن يحس في الآخر بصورة الله. ولا يمكننا أيضاً أن نتعمق في حياة الصلاة التأملية دون أن يكون لنا محبة تتوسل من أجل كل الناس ومستعدة أن تكون خادمة للجميع بلا تفرقة.

من سِيَر آباء البرية:

[سأل أخٌ (راهب) شيخاً روحياً قائلاً: "ماذا يمكنني أن أعمل من الخير لكي أرث الحياة الأبدية؟" فأجاب: "الله وحده، هو الذي يعلم ما هو خيِّر. ولكنني سمعت أن أحد الإخوة قد طرح هذا السؤال على أباً نستيريون الكبير من تلاميذ القديس أنطونيوس فردَّ عليه قائلاً: «كل الأعمال الصالحة ليست على مثال واحد. لأن الكتاب المقدس يروي عن إبراهيم أنه كان يضيف الغرباء وكان الله معه؛ وإيليا كان يعتزل وحده في البراري ويصلي وكان الله معه؛ وداود كان رجلاً متضعاً (رغم أنه كان ملكاً وذا سلطان) وكان الله معه. بناءً على ذلك، فكلٌّ ما تريد نفسك أن تكمله بحسب ما يرضي الله فاعمله

وأنت ستخلص»".](١)

[قال أبا بيمن: "إذا ما اتفق أن ثلاثة إخوة اختار أحدهم حياة السكون الداخلي (الرهبنة التوحدية)، والثاني أُصيب بمرض (مزمن)، فكان دائم الشكر لله، والثالث فضَّل أن يخدم الآخرين بأمانة وبغرض نزيه (حباً في الله)؛ فالثلاثة متساوون في العمل".](٢)

+ والقديس غريغوريوس النزينزي، في قصيدته الشعرية الشهيرة، يشيد بسمو الحب البشري ويبين كيف أنه كان مصدر إلهام لكل النواحي الإيجابية البناءة في الثقافة العامة. والزواج لا يمكن أن يُبعدنا عن الله، بل إنه السر الذي من خلاله يكشف لنا الله عن حبه. إن كمال تقديس ومباركة العلاقة الزوجية يتم في الكنيسة، والشركة في حياة الله الثالوث الأقدس التي يمنحها المسيح للبشرية؛ هي التي تُقَوِّم وتشدد وتجدد هذا الحب القائم بين الرجل والمرأة.

+ أما «البتولية» أو بالأحرى الحياة الرهبانية، فهي ضرورة حيوية لا غنى عنها في الحياة المسيحية، فهي وحدها التي يمكنها أن تشهد – على الوجه الأكمل – بأفضلية الحياة مع الله. هذه الشهادة الرهبانية تؤكد أيضاً من جهة أخرى على أن الزواج ليس فقط علاقة جسدية تحتمها الإلحاحات الغريزية، بل هو تآلف شخصين وتعاونهما معاً على أداء مهام الحياة، بجانب إنجاب النسل وتربيته مع تسليمه الإيمان وحب الله.

---

(١) *Apophtegmes*, Nisthéros, 2 (PG 65, 305-307)

(٢) *Apophtegmes*, Poemen, 29 (PG 65, 326)

+ إن اعـتزال الحيـاة الإجتماعيـة والسياسـية وتكريـس النفـس كلهـا لله، يشـهد بتفـوق نـداء الـروح على كـل مطـالب الحيـاة الحـاضرة. المتبتـل من أجل الله هو إنسـان لا يموت عـن العـالم إلاّ ليحيـا مـن أجلـه أيضـاً.

القديـس غريغوريـوس النزيـنزي:

[إننا بتتميمنا (كبشـر) هـذه الشـريعة واقـتران المحبـة إنمـا نتعـاون معـاً علـى مواصلـة الحيـاة، وإخصـاب الأرض، ونحـن بهــذا نكمـل أمـر الـرب الـذي قـال: "أثمـروا واكـثروا وامـلأوا الأرض"...

نتمعن في من ألهـم النـاس تفضيـل الـزواج الرزيـن؟

ومـن علّمهـم هـذه الحكمـة؟ ... حتـى يعرفـوا كـل مـا علـى الأرض ومـا في البحـار ومـا تحـت قبـة السـماء، ومـن أعطـاهم السـنن والفرائـض، أن يحكمـوا المـدن حتـى قبـل أن تُسَنّ القوانـين؟

مـن جمـع النـاس للتـداول في القضايـا العامـة وللإحتفـال حـول الموائـد في المنـازل، وفي السـاحات وفي الميـادين؟

من دفـع جوقـات المرنمـين أن ينشـدوا في المعـابد؟

مـن هـذّب شراسـة الحيـاة البدائيـة وشـجّع علـى زراعـة الأرض، وعبـور البحـار. ومـن وحّـد بـين المتفرقـين، إلاّ هـذا الحـب الغريـزي الـذي غرسـه الله في طبيعـة البشـر، والمتمثـل بـالأكثر في حفـلات الـزواج؟ وفضـلاً عـن هـذا: بمـا أننـا أعضـاء لبعضنـا البعـض، فنحـن نُحس أن خـير وفـرح أحبائنـا يضـاعف قوتنـا...

المشـاركة في الهـم الواحـد يخفـف مـن وطـأة التجـارب، والأفـراح هي أكثر عذوبـة عندمـا تكـون مشـتركة بـين كثـيرين.

الزواج هو خاتم عطاء الحب والحنان عندما يتفانى كلٌّ من القرينين في بذل حياته من أجل الآخر، ثم كلاهما من أجل أولادهما، حيث لا يمكن لشيء ما أن يفرقهما بعد.

فمن اتحدا في الجسد يصيران أيضاً روحاً واحداً. لأن حبهما المتبادل يشد إيمانهما الواحد، وزواجهما في هذه الحالة لا يبعدهما عن الله؛ بل بالأحرى يقربهما أكثر إليه، طالما أن الله نفسه هو الذي قد وضعه.

أما عن البتولية المنذورة لله: فإنني أترك الآخرين أن يُقيِّموا هذه الحياة كيفما شاءوا، أما بالنسبة لي، فإني أراها طريقاً مُلْهَماً ليشبع الإنسان من الحب الإلهي، الذي أنطلق به من هنا نحو السماء حيث يكون الله هناك الكل في الكل سائداً بنوره وحبه.](٣)

القديس غريغوريوس النزينزي

+ ولا ينبغي أن يفوتنا في موضوع الزواج اقتباس شهادة كاتب مسيحي هو العلاّمة ترتليانوس (١٦٠ – ٢٣٠م)، بالرغم من صلابة أفكاره بخصوص الزواج، فقد عاش قبل ظهور الرهبنة وكان لديه كما لدى المجتمع الكنسي حينذاك، أن الحب البشري السويّ، حب الرجل للمرأة، والذي يقود إلى قرانهما يمثل طريقاً روحياً. وكان ترتليانوس يرى أن هذا الحب ينبغي أن يكون واحداً وحيداً لا يتكرر، حتى إنه كان ينصح بالإعراض عن الزواج الثاني بعد الترمُّل (إلى يومنا هذا لا

---

(٣) GRÉGOIRE DE NAZIANZE, *Sur la Virginité* (PG 37,537-555)

يُسمح لأرمل متزوج ثانية أن يصير كاهناً، وذلك في الكنائس الشرقية التي احتفظت منذ البدء بزواج الكهنة الذين يخدمون في وسط العلمانيين قبل الرسامة).

للعلاّمة ترتليانوس:

[ما أحلى وما أخف النير الذي يجمع بين قرينين وفيين في الرجاء الواحد، والإيمان الواحد، والعبادة الواحدة! فكلاهما رفيقان في خدمة السيد الواحد... إنهما في الحقيقة اثنان في جسد واحد. وحيث الجسد الواحد فهناك الروح الواحد. فهما معاً يصليان...، يتعلمان معاً، يشجعان بعضهما البعض، يشددان أحدهما الآخر. إنهما متساويان في كنيسة الله، ومتساويان على مائدة الرب. إنهما متشاركان على السواء في الآلام، وفي الاضطهادات، وفي التعزيات. ليس لهما ما يخفيانه أحدهما عن الآخر، ولا يَحْذران بعضهما من بعض، ولا يسيء أحدهما للآخر... المسيح يفرح بأن يرى مثل هذين الزوجين، إنه يمنحهما سلامه. وحيث هما هناك فهو نفسه يكون معهما.][٤]

العلاّمة ترتليانوس

+ إن خبرة الرهبان اليقينية بسمو النفس البشرية، حمّست اللاهوتيين والقادة الروحيين في المسيحية، أن يؤكدوا، بعكس الإحساس المتوارث من الأجداد في عالم البحر الأبيض المتوسط، على

(٤) TERTULIEN, *À sa femme*, II, 9 (PL 1, 1302)

المساواة الكاملة للرجل مع المرأة.

يقول العلاّمة كليمندس الإسكندري:

[المرأة لها نفس الكرامة الروحية كما للرجل، فإنه ربٌّ واحد لكليهما، ومعلمٌ واحد، وكنيسة واحدة؛ هما يتطلعان إلى نفس الغاية: يريان، ويسمعان، ويعرفان، ويرجوان، ويحبان بنفس الأسلوب. كيانان لهما نفس الحياة، ومدعوان – على حد سواء – إلى النعمة والخلاص.](٥)

العلاّمة كليمندس الإسكندري

ويقول العلاّمة أوريجانُس الإسكندري:

[الأسفار الإلهية لا تبدي أية مضادة بين الرجال والنساء. فالجنس لا يشكل أي اختلاف أمام الله.](٦)

العلاّمة أوريجانُس

ويقول القديس غريغوريوس النيصي:

[المرأة هي على صورة الله كالرجل تماماً. إنهما متساويان في الكرامة. يمارسان نفس الفضائل، ولكل منهما نفس الجهاد... بل ربما بالكاد يمكن للرجل أن يباري عزم المرأة التي تراعي حياتها الروحية بقوة وحزم.](٧)

القديس غريغوريوس النيصي

---

(٥) CLÉMENT D'ALEXANDRIE, *Pédagogue*, 1,4 (PG 8, 260)

(٦) ORIGENE, *Neuvième Homélie sur Josué*, 9 (GCS 8, 356)

(٧) RÉGOIRE DE NYSSE, *Faisons l'homme à notre image et à notre resemblance*, Discours 2 (PG 44,276)

+ والقديس باسيليوس – في مقدمة كتابه «النسكيات» – يشير إلى أن التمثيل الرمزي الحربي الذي يطبقه القديس بولس الرسول على الحياة المسيحية، ينطبق على المرأة تماماً كما ينطبق على الرجل. ويذكر الدور الهام الذي قامت به النساء في دائرة خدمة الرب يسوع كما يسمونهم: «رسل الرسل» (كما تسميهم الليتورجية البيزنطية: حاملات الطيب، والشهود الأوائل للقيامة).

للقديس باسيليوس الكبير:

[هذا الكلام (الذي نطق به الرسول) يصلح، ليس فقط للرجال، بل وللنساء؛ لأن النساء أيضاً هن من عداد جيش المسيح. إذ بقوة روحهن كثيرات منهن لم يكُنَّ أقل مهارة من الرجال في الحرب الروحية (أي الجهاد ضد الخطية)؛ بل وبعضهن فقن عليهم...
فمن تبعوا الرب يسوع لم يكونوا فقط من الرجال، بل وأيضاً من النساء، وقد قَبِلَ المخلص أن يخدمنه من أموالهن كما قَبِلَ الرجال أيضاً.](٨)

القديس باسيليوس الكبير

+ أما الشهيدة جوليتّا فإن تضحيتها تؤكد هذه المساواة، (وكانت توجه الكلام للنساء اللاتي كُنَّ يُحِطْنَ بها ويندبن عليها):

[قد أُبدعنا – نحن النساء – من نفس الجبلة كالرجال. لقد

(٨) BASILE DE CÉSARÉS: *Bréve instruction ascétiques*, 3 (PG 31, 624)

خُلقنا جميعاً مثلهم على صورة الله... ألسنا متساوين في كل شيء معهم؟ فلكي يجبل الله المرأة، لم يأخذ فقط من لحم آدم؛ بل عظمة من بين عظامه، حتى نكون للرب كما الرجال أيضاً: «ذوي جَلَد وقوة واحتمال». قالت هذا ثم وثبت إلى وسط النار المُعدة لحرقها.](٩)

(٩) BASILE DE CÉSARÉS: *Homélie sur la martyr Julitta, 2* (PG 31, 240)

- ٦ -

كرازة المسيح للعالم كُلّه
منذ بدء العالم وعلى مدى الأجيال

□✱■✱□

+ المسيحيون مدعوون لأن يشهدوا – عملاً وقولاً – أن **المسيح أتى إلى العالم من أجل جميع الناس لا من أجل فئة خاصة**؛ بما أنه وحَّد في نفسه بين البشرية في كمالها، واللاهوتية في كمالها. أما من لم يبلغوا إلى معرفته هنا في هذه الحياة، فالمسيح نفسه سيُعلن لهم ذاته حتى بعد انتقالهم. هذا الاعتقاد كان واحداً من الأبعاد الأساسية لمفهوم نزول الرب يسوع إلى الجحيم (١بط٣:١٩، وقانون الإيمان الرسولي) عند المسيحيين الأوائل. إنه كان وما زال ينزل ويبشر سراً في كل الأزمنة وفي سائر أنحاء المسكونة.

قول للعلاّمة أوريجانس:

[لم يكن هناك البتة حقبة زمنية (في تاريخ البشرية) لم يفتقد فيها المسيح العالم بالخلاص الإلهي، ويعلن عن ذاته لقديسيه.

فكلمة الله تجسد وصار بشراً في آخر الأزمنة (أي الأزمنة المحددة لاستعلان الخلاص الكامل)، وأعلن عن نفسه في يسوع

المسيح. ولكن قبل هذا المجيء المنظور في الجسد كان كائناً، ولكن بدون أن يتخذ هيئة إنسانية (كما اتخذها في سر التجسد)، فهو الوسيط الدائم بين الله والناس.](١)

العلاّمة أوريجانوس

في تفسيره لإنجيل يوحنا ٢٠:١٢

أقوال للقديس إيرينيئوس أسقف ليون:

[لا يوجد إلاّ إله واحد وحيد: هو الله الآب، وكلمته الفاعلة والحاضرة مع البشرية على الدوام، وإن كان بأنواع تدابير مختلفة، أو بمعاملات متعددة الأشكال، مخلّصاً منذ البدء كل الذين شملهم الخلاص، أي أولئك الذين يحبون الله، والذين – بحسب مقتضيات زمانهم – يتبعون كلمته.](٢)

[المسيح لم يأت فقط لأولئك الذين بدأوا يؤمنون به منذ أيام القيصر طيباريوس، والآب لم يفتقد بعنايته الإلهية أناس اليوم (المسيحيين) فحسب. وإنما رعايته هي لكل البشر بلا إستثناء، الذين منذ البدء كانوا، بقدر طاقتهم وإمكانيات عصرهم، يخافون الله ويحبونه، ويمارسون البر والعطف تجاه القريب (كل إنسان)، ويشتهون أن يروا المسيح ويسمعوا صوته.](٣)

---

(١) ORIGÈNE, *Commentaire sur l'Evangile de Jean*, 20, 12 (GCS 4, 342) *et fragment sur l'Epitre aux Colosiens* (PG 14, 1297)

(٢) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV, 28, 2 (SC n° 100 bis, p. 758)

(٣) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV, 22, 2 (SC n 100 bis, p. 688)

[ومن أجل هذا «نزل الرب إلى أقسام الأرض السفلى» (أف ٤: ٩) ليعلن لكل الموتى البشارة المفرحة التي لمجيئه، وبالصفح عن الخطايا لمن يؤمنون به.][٤]

القديس إيرينيئوس

+ وهل يتم الأمر نفسه - وإنما بوجه آخر - في وقتنا الحاضر مع «غير المؤمنين»؟ المسيح في الواقع هو قريب منهم، وهم في غالب الأحيان يتقربون إليه دون أن يعرفوه، وذلك عندما «يمارسون البر والرحمة تجاه القريب (أي كل إنسان)». فهم يستشعرون سر المسيح من خلال المحبة والإحسان. أما الرب فسيعلن لهم ذاته بالكامل، في ساعة موتهم، في وداعة ولطف وبهاء سينبهرون منه...

+ إن مفهوم الإيمان بالمسيح والشركة الجامعة الشاملة فيه (ككلمة الله الآتي لخلاص العالم كله)، والثقة في يقينية أنه لن يَخْلُص إلاّ من قَبل بكامل حريته الدخول في وحدة هذا الإيمان، دفع المؤمنين الأتقياء في كل زمان ومكان أن يصلّوا ويتوسلوا من أجل خلاص جميع الناس. وها كتابات ديوناسيوس الأريوباغي (من الكتابات المسيحية الهامة في القرن الخامس الميلادي) تنبهنا بشدة على أنه ليس لنا أن نقضي على أي إنسان، كان من كان، ولا أن نحكم عليه بالهلاك الأبدي. وإن حَمِيَّة غيرتنا أن «ننتقم لله» إنما تغلق علينا نحن إنفسنا، في الواقع، داخل جحيمنا الخاص لحب انتقامنا نحن. إننا لا ننكر أن الشريعة القديمة كانت توجب الحكم بالقتل على الكافرين لتحمي الشخصية

---

(٤) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV, 27, 2 (SC n 100 bis, p. 738)

البشرية الممثلة في الشعب العبري من الضياع في عبادة الأوثان. ولكن بمجيء المسيح أَوجَدَ وأوجَبَ المحبة الشاملة لسائر البشر دون حدود. وهو نفسه رفض أن تنزل نار من السماء وتحرق السامريين الذين لم يقبلوه (لو٩:٥٣-٥٦) (وانتهر تلاميذه قائلاً: «إنه لم يأتِ ليُهلك الناس بل ليخلصهم»). وهو أيضاً قد طلب الصفح عن صالبيه، وهو يظل دائماً في جانب الذين يرفضونه، بل ويضع ذاته محامياً وشفيعاً عنهم. ففيه لم نعُد نرى الله المنتقم الجبار، بل الإله الذي يستسلم للصلب راضياً.

قول للعلاّمة ديوناسيوس الأريوباغي:

[أليس حقاً أن المسيح يتقرب، بود شديد، من الذين يحيدون عنه، ويحاول معهم متوسلاً إليهم ألاّ يستهينوا بحبه. وإن لم يُظهروا إلاّ النفور والتصامم عن سماع نداداته، ألا يظل هو نفسه محامياً وشفيعاً عنهم.](٥)

[يسوع في وقت آلامه، كان يطلب من الآب الصفح عن أولئك الذين كانوا طغاة نحوه، بل عنّف تلاميذه الذين كانوا يرون أنه ينبغي أن يعاقب بدون رحمة نفاق أولئك السامريين الذين رفضوا أن يقبلوه (لو٩:٥٣-٥٦). أما إذا كنت تكرر القول مرات عديدة في رسالتك لي، أنك لم تطلب الانتقام لنفسك شخصياً، بل لله، قُل لي الحق: أَيُنتَقَمُ بالشر ممن هو هو الخير الكلي ذاته؟ «أليس لنا رئيس كهنة قادر أن يترفق

(٥) DENYS L'ARÉOPAGITE: *Lettre 8, A Démophile* (PG 3, 1085)

بضعفاتنا» (عب٤: ١٥)، بل يتغاضى عن كل سيئاتنا ويرأف بنا، وهو الذي «لا يخاصم ولا يصيح» (مت١٢: ١٩)، لأنه «وديع ومتواضع القلب» (مت١١: ٢٩)، وهو الذي جعل نفسه ضحية «كفارة لخطايانا.» (١يو٢: ٢)

ربما يمكنك أن تبرر نفسك بأن تورد بعض الأمثلة من العهد القديم (عن الذين غاروا للرب وانتقموا له) مثل فينحاس (عد٢٥: ١٣)، وإيليا (١مل١٨: ٤٠). ولكن بعضاً من التلاميذ الذين لم يكن لهم شيء من روح الوداعة واللطف وأرادوا أن يتمثلوا بالسابق ذكرهم، لم يرضَ المسيح، وهو معلمهم الإلهي، أبداً بهذا (لو٩: ٥٤). وهكذا كان مخلصنا يُعلِّم بلطف الذين يعارضون التعليم الإلهي، لأنه هكذا ينبغي: أن يُهذب الجُهال، لا أن يُعاقَبُوا؛ أن يؤخذ بيد الأعمى للسير به في الطريق السوي، لا أن يُلْكَز أو يُلكَم.][٦]

العلامة ديوناسيوس الأريوباغي

+ حقاً إن الكنيسة رفضت قضية النظرية الأوريجانية القائلة: بأن هناك مراحل متعددة من الحالات الروحية سيعبر عليها أخيراً كل الناس، وحتى الملائكة الساقطون، ثم بعدها سينصلحون تماماً ويعودون إلى حالتهم الأولى. لأن مثل هذا التعليم في الواقع، يتعارض مع الإنذارات والتوعدات الشديدة التي توردها الأناجيل على فم الرب، ويستهين بسمة الحرية الأساسية التي نلناها، أنها لا تقبل

---

(٦) DENYS L'ARÉOPAGITE: *Lettre 8, A Démophile* (PG 3, 1096)

النقيض. لنقبل مع أوريجانس أن الشر سينتهي، أي أنه سيُفني ذاته بنفسه، وأن الله وحده هو اللانهائي، وبالتالي هو فقط الذي سيدوم إلى الأبد محققاً توق الإنسان (للخير والخلود)؛ ولكن هذا الرأي يتناسى أيضاً السمة المطلقة التي تتقلد بها الحرية الشخصية التي مُنحت للإنسان ليكون على صورة الله، وهي ملازمة له إلى الأبد.

+ بقى أن نقول: إنه من المحال روحياً أن نتكلم عن جحيم أو هاوية كمصير للآخرين. موضوع «الجحيم أو جهنم» لا يمكننا أن نتناوله إلاّ من خلال لغة الـ«أنا» والـ«أنت»: بمعنى أن الإنذارات والتهديدات الإنجيلية تخصني أنا كمسيحي وكمؤمن. إنها مأساة حقيقية تهدد مصيري الروحي. إذاً، فهي تدفعني إلى التذلل والتوبة، لأن بها أنتبه وأحذر من انحراف مسيرتي.

+ أما ما يخصني من واجب نحو الـ«أنت»، أي نحو القريب الذي لا حصر له (بالمفهوم الإنجيلي للكلمة)، هو أن أحبه، وأخدمه، وأشهد له بإيماني عملاً وقولاً، وأصلي من أجله حتى يتعرف على المسيح القائم من بين الأموات، ويَخْلُص؛ لا هو وحده، بل جميع الناس الذين يشملهم معنى القريب.

+ في كتاب بعنوان: «Mes Missions en Siberie إرسالياتي في سيبيريا»، نُشر عام ١٩١٧، يروي فيه الأرشمندريت سبيردون عن رجل فلاح قديس اسمه سمعان كان يقول له: «أما عن نفسي، فالعذابات (الجهنمية) لا تخيفني في شيء. إنما الذي يرعبني هو أن الله يمكن أن يجرد الخطاة من نعمته... إني مستعد أن أتوسل إلى الله، ليس فقط من أجل المسيحيين، بل وحتى من أجل غير المؤمنين أيضاً.

إني أسترحم الله عنهم جميعاً! عن المجرمين والقتلة والمنتحرين.. بل عن كل الموتى... أضرع إلى الكلي الرحمة والحنان. هذا، يا خادم الله، ما أحسه في قلبي. وسواء كنتُ على صوابٍ أم لا، فإني لا أعلم، ولكن هكذا هو قلبي».

من سير الآباء:

[طلب القديس أنطونيوس من الرب أن يريه من قد يكون نظيره (في إيمانه ونسكه ومحبته لله وللناس)، فأعلمه الله أنه لم يصل بعد إلى مستوى إسكافي ما في الإسكندرية. فقام أنطونيوس لوقته وانطلق من البرية إلى المدينة باحثاً عن الإسكافي، حتى وصل إليه فنزل عنده. وسأله عن حاله، وكيف يتدبر في حياته الروحية؟ فقال له هذا: إنه يعطي ثلث دخله للكنيسة، والثلث الثاني للفقراء، ويحتفظ بالباقي لإعالة نفسه. ولكن هذا العمل لم يبدو أمراً مستغرباً في نظر أنطونيوس الذي ترك هو نفسه كل ما يملك، وكان يحيا في البرية في فقرٍ تام. إذاً، فهذا الرجل لا يفوقه بشيء.

فقال له أنطونيوس: «إن الرب نفسه هو الذي أرسلني إليك لأتعرف على كيفية معيشتك».

أما هذا العامل المتواضع الذي كان يوقّر أنطونيوس، فقد كشف له سر حياته قائلاً: "لا أعمل شيئاً ما يفضلني عن الآخرين سوى أنني في أثناء عملي أتطلع إلى كل عابري السبيل (وإلى السماء)، وأقول: «يارب، ليت هؤلاء جميعهم يخلصون

ولا يهلك أحدٌ»"](٧)

(عن سيرة القديس سلوانس الآثوسي)

قول للقديس يوحنا كاسيان:

[الطلبة الثالثة لأبناء الله (في الصلاة الربانية) تقول: "لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء"... يمكن أن يُفهم هذا الطلب بهذا المعنى: إن مشيئة الله في السماء أن الكل يخلصون، كما يقول القديس بولس الرسول: "الله يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون" (١تي٢: ٤)... إذاً، فنحن عندما نتوسل إلى الله قائلين: "لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء" كأننا نطلب هكذا: "أيها الآب، ليت كما أولئك الذين في السماء، يكون كذلك الذين على الأرض؛ يخلصون، بمعرفة (أي بتقديس) اسمك فيهم وبهم."](٨)

القديس يوحنا كاسيان

---

(٧) Ropporté par le Starets Silouane (in: *Archmandrite Sophrony,* *Starets Silouane,* Paris Sisteron, 1973 p. 203)

(٨) JEAN CASSIEN: *Conférences* IX, 20 (SC n° 54 p. 58)

صدر من مجموعة
مقالات مسلسلة سبق نشرها في
مجلة مـرقس

✝ 📖 ✝

- شخصية الكاهن عند الآباء الملقَّبين بالأقمار الثلاثة.
- الصلاة الربانية وشروحاتها عند الآباء.
- العظة على الجبل وشروحاتها عند الآباء.
- الروح القدس وحياة النسك عند القديس أنطونيوس وآباء البرية الأوائل.
- التبنِّي في المسيح يسوع في فكر آباء الكنيسة.
- الكنيسة جسد المسيح في تعليم القديس كيرلس الكبير.
- تربية الأطفال في تعليم القديس يوحنا ذهبي الفم.
- شهيد السراديب: قصة عن روما القديمة.
- المسيح في صومه وصلاته من أجلنا.
- العهد القديم كما عرفته كنيسة الإسكندرية.
- وجودنا وكياننا في المسيح يسوع.
- المسـيح في حياتـه المقدَّسـة مـن أجلنـا وآلامه وموته وقيامته وصعوده وكهنوته الأبدي.
- الأُبوَّة الروحية عند آباء البرية.
- دعوة الإنسان العليا أو القصد الإلهي من إبداع الإنسان بحسب تعليم آباء الكنيسة.
- المحبة في المفهوم المسيحي بحسب تعليم آباء الكنيسة.
- الكنيسة بيت ميلادنا الجديد بحسب تعليم آباء الكنيسة.
- تدبير الخلاص بحسب تعليم القديس أثناسيوس الرسولي.

(تتبَّع نشر مقالات مجلة مرقس المسلسلة في كتب منفصلة)

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ـ ت ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء ـ المنشية ـ ت ٨٠٨٦٣٧

الثمن جنيه واحد

(١٥٨)